واســـط مدينة الحجاج

للأستاذ يوسف يعقوب مسكوني

لا يخفى على المتتبع ما للثقافة والعمران فى أية بلدة من البلدان من تأثير عظيم يقيم لهـا وزناً كبيراً بين باقى المدن والأمصار . فقد يتحدث المتحدث عن بلدة واحدة ذات شأن فى مملكة من الممالك فتجعل البلدة لهذه المملكة شأناً بين الأمم والشعوب . وفخامة المدن نتيجة الثقافة والعمران ، وهما أساسان رصينان فى أسس الحضارة البشرية التى سمت على أحوال باقى المخلوقات فى الطبيعة . ونقصد بالثقافة العلم والفن ومعاهدها التى تدعى بالمدارس والجامعات على اختلاف أشكالها وأنواع مسمياتها . فهى المناهل الرائقة للعلم والفن . وكلما ازداد عدد هذه البيوت ازداد مقدار التقدم الثقافى والتهذيب العلمى وبهما تكمل سيادة الأفراد فى المجتمع البشرى . وكذلك العمران ونقصد به المؤسسات المتنوعة لكل ما ينفع الفرد فى حياته سواء أكان ذلك من أجل صحته أم عيشه أو اكتسابه . كل هذه المؤسسات تعود عليه بالنفع العميم لمواطنيه كافة من أبناء قومه وغيرهم .

ولقد دلت أبحاثنا عن تاريخ واسط الذى ما زلنا ندأب على استقصاء أخباره أن لمدارس هذه المدينة المندثرة أهمية كبيرة فى تاريخها وإن كان ما توصلنا إلى معرفته منها قليلاً . فإن معاهدها الثقافية لم تقتصر على عدد معلوم تحيط به المعرفة بل كانت هنالك فى واسط الربط التى كانت تكون بمثابة مدارس تدرّس فيهـا علوم الدين وخاصة القرآن الكريم ، وما يتعلق به من التفسير وما يخص قواعد الصرف والنحو وعلوم البيان والبديع والنثر والشعر ، وكذلك الفقه والعلوم الشرعية وفلسفة الكون والتوحيد وغيرها ؛ كما أننا نعلم أنه كان يتخذ فى كل مسجد من المساجد مدرسة لتعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ، ودرس العلوم الدينية . فكان يعتبر كل مسجد بمثابة مدرسة من المدارس ، وكان فيها كتاتيب لتعليم الصغار وتهيئتهم لقبول هذه العلوم . ولم تشتهر مدينة واسط كما يظهر لنا إلا بالمدارس الآتى ذكرها على ما دونه المؤرخون الرحالون من أبنائهـا ، ولعلهم لم يجدوا أشهر منها فى زمانهم . فأولاها مدرسة الأمير خطلبرس ، وكانت تقع هذه المدرسة بالقرب من دجلة فى الجهة الشمالية الغربية من الجانب الشرقى كما يغلب على الظن ، لأن مدينة واسط كانت راكبة دجلة من الجانبين كبغداد . وقد نص على تعيين موقعها العلامة المؤرخ ابن الديثى فى مخطوطه المحفوظ الآن فى الخزانة الأهلية بباريس حيث قال فيه : « جعفر بن مظفر بن يحيى بن محمد بن هبيرة . توفى بواسط سنة ٥٦٠هـ . فدفن بها بمدرسة (خطلبرس) أعلى البلد » اهـ[1] . وقد سميت بهذا الإسم نسبة إلى أحد الأمراء الذين حكموا فى واسط اسمه خطلوبرس ذكره جماعة من المؤرخين يطول بنا تفصيل أقوالهم هنا[2] . وهى من مؤسسات القرن السادس للهجرة لاتفاق أكثر المؤرخين على تحديد وجود الحاكم المذكور فى هذا القرن . ونستدل من أخبار هؤلاء المؤرخين أن المدرسة كانت كبيرة حتى كانت فيها مقبرة لدفن مشاهير الرجال العلماء فيها . وذكر ابن حجر فى الدرر مدرسة بواسط تعرف بالمدرسة البرانية لوقوعها فى أعلى البلد ولعلها هى لاتفاق المؤرخين على تعيين هذا الموضع[3] . وتليها مدرسة الغزنوى بواسط وهو : محمود بن أحمد بن عبد الرحمن أبو الفضل الغزنوى حدث بكتاب تفسير الفقهاء ، وتكذيب السفهاء لأبى الفتح عبد الصمد بن محمود بن يوسف الغزنوى عن ولده القاضى يحيى بن عبد الصمد عن أبيه ذكره الحافظ ابن النجار وقال : صحب أبا الفتوح أحمد بن محمد الغزالى وأخذ عنه علم الوعظ وقدم بغداد سنة سبع وخمسين وخمسمائة وعقد مجلس الوعظ بجامع القصر ثم انتقل إلى واسط فسكنها إلى حين وفاته . وقرأت فى كتاب القاضى أبى الحسين على الواسطى بخطه قال : توفى محمود الغزنوى يوم الجمعة ودفن يوم السبت ثامن شعبان

(١) أفادناه الدكتور مصطفى جواد

(٢) راجع الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ٢١٢ ط مصر وكتاب العبر لابن خلدون ج ٣ ص ٥١٩ ، ص ٥٢٠ ، ص ٥٢٤ ط مصر وكتاب الجامع المختصر لابن الساعى الخازن فى حوادث سنة ٥٩٧هـ

(٣) الدرر الكامنة للعسقلانى ج ٤ ص ٤١٩ وطبقات الشافعية للسبكى ج ٦ ص ٢٥٠

سنة ثلاث وستين وخمسمائة فى مدرسته بمحلة الوراقين وكان يوماً مشهوداً »[١] .

ثم تعقبها مدرســة شرف الدولة محمد بن ورام الجاوانى الكردى ورد ذكره فى مخطوطة تاريخ واسط لأسلم بن سهل ابن حبيب الرزاز الواسطى المعروف ببحشل حيث ذيلت فى آخر المخطوطة الفقرة التالية : « سمع جميع هذا الكتاب وهو تاريخ واسط لبحشل . . . وذلك بواسط فى مدرسة شرف الدولة محمد ابن ورام نور الله ضريحه في مجالس آخرها الاثنين رابع عشر من ذى القعدة من سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة »[٢] . فإذا كان آخر قراءة المخطوطة فى هــذه السنة فلا شك أن تشييد المدرسة المذكورة يسبق هذا التاريخ المذكور بكثير

ثم تأتى بعدها مدرسة للحنفية ذكرها ابن الساعى الخازن وذكر مدرسها أبا المحاسن عبد اللطيف المعروف بابن الكيال الواسطى قاضى واسط المشرف على ديوانها الزمامى . تولى القضاء بواسط بعد أبيه . وكانت وفاة أبى المحاسن هذا سنة خمس وستمائة[٣]

ومن مدارسها أيضاً المدرسة الشرقية الشرابية ذكرها ابن القوطى البغدادى فى حوادث سنة ٦٣٢ هـ ، حيث يذكر فتحها فى هذه السنة بالجانب الشرقي من واسط على دجلة وهى التى أمر بإنشائها شرف الدين أبو الفضائل الشرابى للشافعية ، وكانت مجاورة لجامع كان داثراً فأمر بتجديد عمارته ورتب بها للتدريس العدل أحمد بن نجا الواسطى ومعيدان واثنان وعشرين فقيهاً ، وخلع على الجميع وعلى من تولى عمارتها من النواب والصناع والحاشية الذين رتبوا لخدمتها ، وعمل فيها دعوة حسنة حضرها صاحب الديوان تاج الدين معلى ابن الدباهى الناظر بواسط والقاضى والنقيبان : نقيب بنى العباس ونقيب بنى أبى طالب والشعراء والقراء ، وكان المتولى لعمارتها وجعل النظر إليه وإلى عقبه فى وقفها أبو حفص عمر بن أبى إسحاق الدروقى[٤] ، وكان ذا مال كثير فائض وجاه عريض عمر ، إلى جانب جامع ابن رقاقا رباطاً وأسكنه جماعة من الفقراء ، ورتب فيه من يلقن القرآن المجيد ويُسمع الحديث ، وأجرى عليهم الجرايات اليومية والشهرية . وأنشأ قريباً من مدرسة الشرابى هذه رباطاً آخر على شاطئ دجلة وتربة يدفن فيها ووقف عليها وقوفاً سنية[١] وممن درّسوا بالمدرسة الشرقية الشرابية عماد الدين زكريا القزوينى قاضى واسط صاحب كتاب عجائب المخلوقات وكتاب آثار البلاد وأخبار العباد فلم يزل كذلك إلى أن مات . وكان حسن السيرة عفيفاً[٢] . ومن مدارسها أيضاً المدرسة التى وصفها ابن بطوطة فى رحلته ولم يذكر اسمها وإنما يذكر اسم بانيها وهو الشيخ تقى الدين عبد المحسن الواسطى الذى كان من كبار أهل واسط وفقهائها ، وقال فيه إنه يعطى كل معلم بها كسوة فى السنة ويجرى له نفقة فى كل يوم ويقعد هو وإخوانه وأصحابه لتعليم القرآن الكريم بها ثم يقول : « وقد لقيته وأضافنى وزودنى تمراً ودراهم » فتكون رحلة ابن بطوطة إلى واسط فى إبان تشييد هذه المدرسة التى قال فيها إنها مدرسة حافلة فيها نحو ثلثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعليم القرآن وهى من منشئات أوائل القرن الثامن الهجرى[٣] . ويجد الباحث فى تاريخ واسط مدارس بأسماء المحدثين والرواة والفقهاء كانوا يتخذونها بأسمائهم أو يجعلون قسما من بيوتهم مدرسة يجتمع إليها طلاب العلم من المدينة أو من أنحاء أخرى

هذا مجمل ما تمكنت من العثور عليه من أخبار مدارس واسط . ويقينى أن وجود هذه المدارس فى مدد متقاربة هو الرجعة العلمية التى حدثت فى أواخر أيام الدولة العباسية لا سيما عهد الوزير نظام الملك وزير آلب أرسلان وملكشاه السلجوقيين فهو الذى نعش الروح العلمى فى زمانه بفتحه المدارس النظامية فى أنحاء الشرق العربى والعجمى فتأثرت واسط هــذه الآثار وعاد لها نشاطها العلمى والثقافى وهى أم المقرئين والمحدثين والفقهاء الذين درسوا وأفتوا فى مختلف البلدان العربية وأخصها بغداد مركز الخلافة العباسية حيث كثر فى معاهدها العلمية الأساتذة الواسطيون

ومن أخبار العمران فى واسط أن نذكر مارستانها وأطباءها الذين عثرنا على أسمائهم فى سياق البحث . وأول أطباء واسط

(١) الجواهر المضيئة فى طبقات الحنفية لعبد القادر القوشى المصرى ج ٢ ص ١٥٤ ط الهند

(٢) مخطوطة بحشل ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ فى التحف العراق ببغداد

(٣) الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٨٠

(٤) الحوادث الجامعة ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤

(١) و (٢) الحوادث الجامعة ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١١٤ ط مصر

تياذوق طبيب الحجاج بن يعلف له نوادر . وألفاظ مستحسنة فى صناعة الطب وقد عمر طويلاً . صحب الحجاج والى العراق وخدمه بصناعة الطب ، وكان يعتمد عليه ويثق بمداواته ؛ وله تفاصيل مع الحجاج لا يسعنا ذكرها . وقد توفى بواسط فى نحو سنة تسعين للهجرة ، وله من الكتب كناش كبير أى كتاب جامع ألفه لابنه ، وكتاب إبدال الأدوية وكيفية دقها وإيقاعها وإذابتها وشتى من تفسير أسماء الأدوية . وله تلاميذ أجلة تقدموا بعده . ذكره عدة مؤرخين . ثم يليه تلميذه فرات بن شمانة الذى كان طبيباً لعيسى بن موسى الذى دعاه المهدى إلى خلع نفسه وتولية الهادى[١] ، ومن الأطباء أيضاً يوسف الواسطى الذى قرأ عليه جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع الذى كان من أطباء المقتدر وخواصه[٢] ومنهم أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة الحرانى كان طبيباً مقدماً كأبيه ، وكان طبيب المقتدر خصيصاً به ، ثم خدم القاهر وإليه يرجع وعلى وصفه يعتمد . ومن أخباره أنه لما كان الخليفة الراضى بالله استدعى بحكم التركى سناناً وكان بواسط وسأله الانحدار إليه ولم يتمكن من الطلوع فى ذلك قبل موت الراضى للازمة سنان بخدمته ، فانحدر إليه وأكرمه ووصله . وله حديث طويل فيه نصح وإرشاد يطول بنا وصفه حتى أنه حمل بحكم على عمل دار ضيافة بواسط وقت المجاعة فأكرمه سناناً غاية الإكرام وعظمه غاية التعظيم[٣]

ومن أهم البيمارستانات التى شيدت بواسط البيمارستان الذى شاد بذكره المؤرخون ، أنشأه مؤيد الملك أبو على الحسن الرخجى وزير شرف الدولة بن بهاء الدولة مدبر دولة الخليفة القادر بالله العباسى فى العراق جميعه سنة ٤٠٣ هـ وأكثر فيه من الأدوية والأشربة والعقاقير ، ورتب له الخزان والأطباء وغير ذلك مما يحتاج إليه ؛ وصفه عدة مؤرخين أيضاً[٤] . ومن مشاهير أطباء هذا البيمارستان أبو نعيم بن ساوة الطبيب الواسطى . كان من الحذاق فى الطب وله فيه إصابات حسنة وقد قتل فى سنة ٤٩٧ هـ ، فيكون موته قريباً من عهد تشييد البيمارستان المذكور[١] . وممن نحن جديرون بذكره الطبيب الكبير موفق الدين أحمد بن محمد المعروف بأبى طاهر بن البرخشى كان من أهل واسط وكان فاضلاً فى الصناعة الطبية كاملاً فى الفنون الأدبية والفلسفة والحكمة والطب ، وكان كريم الشمائل ظريف المخايل لا يخال إلا الأكابر ، ولا يألف إلا الصدور ، وكان مع ذلك مأوى الضعفاء وملجأ الملهوفين كثير الإحسان ، وقد كان من أهل القرن السادس للهجرة . قيل إنه كان حيا بواسط سنة ستين وخمسمائة ، وكان عنده أدب بارع ومعرفة بالنظم والنثر فلاعجب أن أبا طاهر البرخشى كان من الذين خدموا فى البيمارستان المذكور أو من الذين اتصلوا بأطبائه ما دام أنه كان إذ ذاك من مشاهير أطباء واسط ومن الذين عاشوا بعد تشييد البيمارستان المذكور[٢]

ومن الأطباء أيضاً أبو الفرج سعيد بن ابراهيم الواسطى ، هذا كان طبيباً وقساً وراهباً[٣] وممن نزحوا إلى واسط لممارسة هذه المهنة العظيمة الشأن أبو العلاء محفوظ بن المسيحي بن عيسى الحكيم الطبيب النصرانى النيلى الأصل نزيل واسط ، كان طبيباً فاضلاً نبيلاً مذكوراً فى وقته عالماً بصناعة الطب مرتزقاً بها جميل المشاركة محمود المعالجة وله مع ذلك أدب طريف وخاطر فى النظم ، وكان مولعاً بالألغاز والمعميات . توفى فى أوائل سنة ستين وخمسمائة إذ كان معاصراً لأبى طاهر البرخشى المذكور آنفاً[٤]

هذا ما وقع إلينا من أخبار أطباء واسط ومارستانها ولعلنا نعثر على غيرهم فى المستقبل والله ولى التوفيق .

(بغداد) يوسف يعقوب مسكونى

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبي إصيبعة ج ١ ص ٢١ — ٢٣ ثم ص ١٦١ — ١٦٣ وأخبار العلماء القفطى مادة تاء وباء .

(٢) عيون الأنباء أيضاً ج ١ ص ١٤٤

(٣) أخبار العلماء للقفطي مادة سين ونون .

(٤) الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ٢٣١ ط بولاق والعينى فى عقد الجمان فى حوادث سنة ٤١٣ وسنة ٤٣٠ وابن شاكر الكتبى فى عيون التواريخ وابن كثير فى البداية والنهاية حوادث سنة ٤١٣ وغيرهم كالجامع =

= المختصر لابن الساعى ج ٩ ص ٢٢ فى حوادث سنة ٥٩٥ وآخر من أخذ عنهم الدكتور احمد عيسى المصرى صاحب تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ص ١٩٨

(١) الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ٢٥٩

(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى إصيبعه ج ١ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧

(٣) المجدل لماري بن سليمان ط رومية ص ١٤٢ لغاية ١٥٢

(٤) أخبار العلماء للقفطي ص ٢١٥ ط مصر